

هنري ميلر

ابتسامة عند قدم السلم

ترجمة
أسامة إسبر

نينوى
للدراسات والنشر والتوزيع

الابتسامة
عند قدم السلم

اسم الكتاب : الابتسامة عند قدم السلم
اسم الكاتب : هنري ميلر
اسم المترجم: أسامة اسبر

الطبعة الأولى 2001

دار نينوى

للدراسات والنشر والتوزيع

سوريا – دمشق – ص.ب 7917 تلفاكس: 5136526

موافقة مديرية الرقابة بوزارة الإعلام رقم / 50802 /

تاريخ 2001/3/15م

الإخراج الفنّي: دار نينوى – غسّان الناصير تصميم الغلاف: دار نينوى

هنري ميلر

الابتسامة عند قدم السلم

ترجمة: أسامة اسبر

لم يستطع أي شيء إعتام بريق تلك الابتسامة الرائعة التي نُقشتْ على محيّا أوغوست الحزين. والتي تحلّت. في الحلبة، بصفة خاصة بها، منفصلة، مكبرة. تعبّر عمّا يفوق الوصف.

عند قدم سلّم يرتفع إلى القمر، كان أوغوست يجلس متأملاً، ابتسامته ثابتة، أفكاره بعيدة. هذا التظاهر بالنشوة، الذي أوصله إلى الكمال، غالباً ما أثّر في الجمهور كمحصلة لما هو متنافر. وكان هذا المحبوب العظيم يحتفظ بكثير من الخدع، التي لا تُضاهى. ولم يسبق أن فكر مهرجٌ مطلقاً بأن يصوِّر معجزة صعود المسيح إلى السماء.

كان يجلس على هذا النحو كل ليلة منتظراً مداعبة الفـرس البيضاء التي يسقط عرفها على الأرض في جـداول ذهبيـة. كـان ملمس خطم الفرس الدافئ علـى العنـق مثـل قبلـة فـراق المحبوب،يوقظه، برقة ورهافة؛ كما ينعش الندى جميـع أوراق العشب.

وداخل شعاع ضوء خشبة المسرح يستلقي العالم الذي كـان يولد فيـه مـن جديـد كـل مسـاء. ويتـألف مـن تلـك الأشياء؛ والمخلوقات، والكائنات التي تتحرك في دائرة السحر: منضـدة، كرسي، سجادة، حصان، جرس، طوق ورقي، السـلم الأبـدي، القمر المثبت بمسامير إلى السقف، مثانة معـزاة. وبـهذه الأشـياء كان أوغوست ورفاقه ينجحون؛ كل ليلة، في إعادة إنتاج دراما البدء والشهادة.

وبدت هناك صفوف من الوجوه ترتفع فوق بعضها بعضاً، تغمرها دوائر من الظل متحدة المركز، وتفصلها في بعض المواضع أمكنة فارغة. كان ضـوء خشـبة المسرح يلعقـها بشـراهة لسـان

يبحث عن سن مفقود.وكان الموسيقيون، السابحون في الغبار وأشعة المغنسيوم، يتمسكون بأدواتهم كأنهم مهووسون؛ أجسادهم تتأرجح كالقصب في اللعب المترجرج للضوء والظل. وكان البهلوان يتحرك دوماً على إيقاع القرع المكتوم للطبل، بينما يُقدِّمُ راكب الفرس غير المسرج بتبويق على الدوام. وأحياناً كان الصريف الباهت للكمان يرافق أوغوست، وفي أحيان أخرى ترافقه الألحان الساخرة للكلارينت، وهو يثب مرحاً بين المهرجين. ولكن، عندما تحين لحظة الدخول في النشوة، يطارد الموسيقيون، الذين يجيئهم الإلهام فجأة، أوغوست من طيران لولبي سعيد إلى آخر، مثل الخيول المثبتة على منصة، حين تتحرك على هواها، في عرض يقوم به الفرسان.

كان أوغوست يجادل نفسه كل مساء، حين يضع مستحضرات التجميل. إن الفقمات، بغض النظر عن ما تُجبر على القيام به، تبقى فقمات دائماً. الحصان يبقى حصاناً، والمنضدة تظل منضدة. أما أوغوست، الذي يظل إنساناً، يريد

أن يصبح شيئاً أكثر من ذلك: أن يتحلى بقوى كائن فريد وبموهبة خاصة. ينبغي عليه أن يُضْحِكْ البشر. ولم يكن من الصعب جعل البشر يبكون، أو جعلهم يضحكون، كما اكتشف ذلك منذ مدة طويلة، قبل أن يحلم حتى بالانضمام إلى السيرك. ولقد حصل أوغوست، على أي حال، على إلهامات أكثر عظمة – أراد أن يمنح مشاهديه متعة تبرهن أنها خالدة. وكان هذا الهاجس هو الذي حثه في البداية على الجلوس عند قدم السلم والتظاهر بالنشوة. وبمحض المصادفة دخل في مظهر نشوة – ناسياً ما الذي من المفترض أن يفعله في المرة التالية. حين أفاق، نوعاً ما، محتاراً، وفي غاية القلق، وجد أنهم صفّقوا له على نحو عاصف. وفي المساء التالي كرر التجربة، بتروٍّ، مصلياً كي يفسح الضحك البليد، والأجش الذي أثاره بسهولة، المجال للمتعة المطلقة التي أراد أن يوصلها. ولكن في كل ليلة كان ينتظره التصفيق العاصف نفسه رغم جهوده المخلصة.

وكلما كانت هذه المسرحية القصيرة عند قدم السلم أكثر نجاحاً،تزداد كآبة أوغوست. وكل ليلة كان الضحك يصير أكثر إزعاجاً لأذنيه. وفي النهاية لم يعد قادراً على احتماله. وفي إحدى الليالي تغيّر الضحك إلى ملاحظات ساخرة وصيحات استهجان، تبعتها قبعات، ورفض، وأشياء أخرى أكثر صلابة كذلك. لقد فشل أوغوست في أن يسترد مركزه. انتظر الجمهور ثلاثين دقيقة، ثم أصبح مستاء، واشتبه بالأمر وازداد توتره: فأطلق، في النهاية، صيحات السخرية. حين أفاق أوغوست في غرفة ارتداء الملابس فوجئ عندما رأى الطبيب منحنياً فوقه. كان وجهه وجسده كتلةً من الجراح والكدمات. كان الدم متخثراً فوق الصبغة مشوهاً صورته بحيث لم يعد يُعرَفْ. بدا كأنه شيء ما هُجِرَ على وضَمٍ[1] اللحام.

– خشبة غليظة يقطع عليها الجزار اللحم.

بعد أن أنهي عقده على نحو مفاجئ: هرب أوغوست من العالم الذي كان يعرفه. ودون رغبة باستئناف حياته كمهرج، لجأ إلى التجوال. تنقل مجهولاً، لا يعرفه أحد، بين الملايين الذين علمهم أن يضحكوا. لم يكن هناك استياء في قلبه، بل حزن عميقٌ فحسب. وكان قتاله مستمراً لمقاومة الدموع. في البداية قبل هذا الوضع الجديد للقلب. لم يكن أكثر – قال لنفسه – من توعك سببته هذه المقاطعة المفاجئة لروتين استمر طول حياته. وحين انصرمت الشهور أدرك، بالتدريج. أنه كان يندب فقدان شيء ما أخذ منه – ليس قدرته على جعل البشر يضحكون، آه لا! التي لم يعد يهتم بها – وإنما شيء آخر، أكثر عمقاً من ذلك، شيء ما كان خاصاً به على نحو فريد. واتضح له في أحد الأيام أنه مر وقتٌ طويل. طويل جداً، منذ أن عرف السعادة. فارتجف حين اكتشف أنه لا يقدر أن ينتظر ليدخل إلى غرفته. وبدل أن يسرع إلى فندقه: على أي حال، أشار لسيارة أجرة وأمر السائق أن يأخذه إلى ضواحي البلدة.

ولكن إلى أين بالضبط؟ أراد السائق أن يعرف. قال أوغوست فاقداً للصبر: « إلى حيث توجد أشجار، ولكن استعجل. أتوسل إليك - الأمر ملحٌّ».

وخارج ساحة للفحم عثرا على شجرة وحيدة، فأمر أوغوست السائق أن يقف . «هل هذا هو المكان؟» سأل السائق ببراءة.

أجاب أوغوست: « نعم. اتركني بسلام».

وبدا كأن أوغوست صارع، لوقت لا نهاية له، كي يعيد خلق مظهر المزاج الذي يخدمه عادة كمقدمة للأداء الليلي عند أسفل السلم. ولسوء الحظ كان الضوء قاسياً: شمس حادةٌ لفحت بؤبؤي عينيه. وفكر بينه وبين نفسه: « يجب أن أجلس هنا فحسب، إلى أن يخيّم الليل. حين يطلع القمر كل شيء سيكون في مكانه». غفا بعد بضع دقائق. نام نوماً ثقيلاً حلم فيه أنه عاد ثانية إلى الحلبة. كان كل شيء كما كان دوماً، عدا أنه لم يعد سيركاً تستمر فيه الأمور. اختفى السقف، تساقطت

الجدران. وفوقه كان القمر الحقيقي عالياً في السماء، قمر بدا كأنه يعدو عبر غيوم ثابتة. وبدلاً من صفوف المقاعد الدائرية،ارتفعت هناك في ميلان لطيف، ومباشرة إلى السماء، جدران واقعية من البشر لا تصدر عنها ضحكة، أو تمتمة.وكانت تلك الحشود الكبيرة من الأطياف. معلقة في الفضاء الذي لا يُسبر، وبدا الجميع كأنهم مصلوبون. مشلولاً من الخوف، نسي أوغوست ما كان من المفترض أن يفعله. وبعد فترة من التشويق، لا تُطاق؛ بدا له أثناءها أنه هُجر وتُرك بقسوة أكبر مما حدث للمسيح نفسه، أسرع مهتاجاً كي يهرب من الميدان. ولكن المخارج كانت مغلقة في جميع الاتجاهات التي كان يركض نحوها. لجأ إلى السلم يائساً، وبدأ تسلقه محموماً، وتابع التسلق إلى أن توقف نَفَسَهُ. بعد وقفة ضرورية غامر وفتح عينيه كي ينظر حوله. أولاً نظر إلى الأسفل. كان قدم السلم لا مرئياً تقريباً، وبعيداً إلى الأسفل تقع الأرض. ثم نظر إلى الأعلى، فرأى السلم يرتفع درجة بعد درجة فوقه، بلا

نهاية، يخترق الغيوم. يخترق الزرقة نفسها التي تتوسدها النجوم. كان السلم يصعد مباشرة إلى القمر الذي يقع وراء النجوم، وهو قمر بعيد على نحو لانهائي. ملصق كقرص متجمد على القبة في الأعلى. بدأ أوغوست يبكي ثم ينشج. كمثل صدى باهت، مكبوح في البداية، ولكنه ينتفخ تدريجياً إلى بكاء كبير،سمع أنين وشهقات الحشد الذي لا يُحصى والذي طوّقه. تمتم أوغوست: «مريع. إنه مثل الموت والولادة في الحال. أنا سجينٌ في المطهر». وحينئذ داخ، سقط إلى الخلف في العدم. استعاد وعيه تماماً حين أدرك أن الأرض تضغط إلى الأمام كي تتلقاه. وعرف أن هذه ستكون نهاية أوغوست، النهاية الحقيقية، ميتة الميتات. وعندئذ جاءت ومضة ذاكرة كلمعان مدية. لم تُترك له ثانية أخرى، نصف ثانية، ربما، ولن يبقى بعد الآن حياً. ما الذي ارتعش في أعماق كيانه. كوميض نصل، كي يسبقه إلى النسيان فحسب؟ فكر بسرعة فكان قادراً أن يتذكر في جزء الثانية الهارب: المتبقي له، موكب حياته كله.

لكنه لم يستطيع أن يبعث أهم لحظة في حياته، الجوهرة التي تعنقدت حولها أحداث الماضي المهمة. كان الوحي نفسه ينهار معه. ذلك أنه يعرف الآن أن كل شيء توضّح له في لحظة ما في الزمن. والآن، وهو على وشك الموت، انتُشِلَتْ منه تلك الهبة الأكثر سمواً. وكشحاذ، بمكر وبراعة يفوقان أي حساب: نجح أوغوست في القيام بالمستحيل: قبض على الجزء الأخير من الثانية الذي خُصِّص له، وبدأ يقسمه إلى لحظات بقاءٍ متناهية الصغر. لا شيء جربه في سنوات حياته الأربعين، ولا جميع لحظات المتعة مجموعة مع بعضها بعضاً، يمكن أن تقارن بالمتعة الحسيّة التي جربها في ادّخار هذه الشظايا المبعثرة لجزء من ثانية منفجر. ولكن حين قطّع هذه اللحظة الزمنية إلى قطع متناهية الصغر،وانتشرت حوله كمثل نسيج واسع من البقاء، قام بالاكتشاف المرعب بأنه فقد القدرة على التذكر. لقد فرغ من الداخل.

في اليوم التالي، وبعد أن أنهكه هذا الحلم، قرر أوغوست أن يبقى في غرفته. ولم ينشّط نفسه إلا حين شارف المساء على القدوم. لقد أمضى النهار كله في السرير. يلهو بكسل مع حشود الذاكرة، التي، لسبب غير قابل للشرح، هبطت عليه كوباء من الجراد. أخيراً، بعد أن أنهكته الصدمة في المرجل الشاسع من التذكر، ارتدى ثيابه وسار الهوينى كي يضيع بين الحشود. وبقليل من الصعوبة نجح في تذكر اسم البلدة التي كان يطوف في شوارعها.

عثر في ضواحي البلدة على مجموعة تعمل في السيرك، إحدى تلك الفرق الهائمة من العازفين الذين يعيشون على العجلات. بدأ قلب أوغوست يخفق بشدة. اندفع، يتهور، إلى إحدى المركبات التي نصبوها على شكل سيرك دائري - وبجبن صعد الدرجات الصغيرة التي رميت من مؤخرة العربة. كان على وشك أن يقرع حين اعتقله صهيل فرس قريب إلى جانبه. وفي اللحظة التالية كان خطم الفرس يرعى ظهره. سرت متعة عميقة

في كيان أوغوست. واضعاً ذراعيه حول عنق الحيوان، تحدث بكلمات لطيفة مهدئة وكأنه يحيي صديقاً ضائعاً منذ مدة طويلة.

فجأة انفتح الباب الذي خلفه وخنق صوت امرأة هتاف دهشة. مندهشاً إلى درجة أنه فقد صوابه تقريباً، غمغم: «إنه أنا، أوغوست».

كررت بعده: «أوغوست؟ لا أعرفك».

غمغم باعتذار: «اعذريني، يجب أن أذهب».

وما إن قطع بضع خطوات حتى سمع المرأة تصيح: «أنت هناك، أوغوست، تعال إلى هنا! لماذا تهرب؟».

توقف هامداً. استدار، تردد لحظة، ثم علت وجهه ابتسامة عريضة. طارت المرأة نحوه، بذراعين ممدودتين. ودبَّ ذعرٌ بارد في أوغوست. للحظة قصيرة خطر له أن يستدير ويهرب. لكن هذا كان متأخراً جداً. كانت ذراعا المرأة حوله الآن، تمسكانه بشدة.

قالت مرة بعد أخرى مندهشة: «أوغست، أوغست. أتظن أنني لم أعرفك!».

شحب أوغوست من هذا. كانت المرة الأولى طوال تجواله التي يتعرف عليه فيها أحد ما. كانت المرأة لا تزال تمسك به كملزمة، وبدأت تقبله، أولاً على خد، ثم على الآخر، ثم على الشفتين. وكان أوغوست يرتجف.

وحالما خلص نفسه منها توسل إليها: «هل أستطيع الحصول على قطعة من السكر؟»

«السكر؟»

قال أوغوست: «نعم، من أجل الفرس.»

وبينما كانت المرأة تفتّش داخل الشاحنة جلس أوغوست على الدرجات الصغيرة. وبخطم مرتعش، وناعم كانت الفرس تلعق قفا عنقه. وفي تلك اللحظة فحسب: حدثت مصادفة غريبة، ذلك أن القمر طلع واضحاً فوق قمم لأشجار البعيدة. وخيم هدوء رائع على أوغوست. ولبضع ثوان وحسب - بالكاد

كان يمكن أن تكون أكثر من ذلك – استمتع بنوع من النوم الخدري. ثم جاءت المرأة وهي تقفز، تنورتها المرخية تلمس كتفه حين تهبط إلى الأرض.

كانت كلماتها الأولى، حين جلست على العشب إلى جانبه: «اعتقدنا جميعاً أنك مت». ثم أضافت بسرعة، مقدمة إليه قطعة سكر بعد أخرى: «كان العالم كله يبحث عنك».

كان أوغوست يصغي بصمت فيما المرأة تثرثر. جاء معنى كلماتها إليه ببطء، ببطء شديد، وكأنه يسافر إلى أذنيه من مسافة بعيدة. ما أثاره هو الإحساس المتع الذي كان ينتشر عبر جسده كلما لعق خطم الحصان المبلل راحة كفه. كان يحيا من جديد، وبتوتر، تلك المرحلة المتوسطة التي اعتاد أن يجربها ليلاً عند أسفل السلم ، تلك الفترة بين ضمور النعمة والانفجار الوحشي للتصفيق الذي كان دوماً يجيء إلى أذنيه كقصف الرعد البعيد.

ولم يفكر أوغوست بتاتاً بالعودة إلى الفندق وجمع مقتنياته.
فرش بطانية على الأرض قرب النار، ومسجوناً داخل الدائرة السحرية للعجلات والعربات، استلقى مستيقظاً متبعاً ببصره المسار المتوهج للقمر. وحين أغمض عينيه أخيراً كان قد اتخذ قراراً بأن يتبع الفرقة. كان يعرف أنه يستطيع أن يثق بهم في جعل هويته سرية.

كانت المساعدة في نصب الخيمة، وفرش السجادات الكبيرة، وتحريك الدعامات، وسقي الأحصنة وسوسها، والقيام بألف عمل وعمل روتيني مطلوب منه، كان كل هذا يقدم متعة خالصة لأوغوست. أهمل نفسه وضاع في متابعة المهمات الحقيرة التي ملأت أيامه. وبين فترة وأخرى كان ينغمس في ترف مراقبة الأداء كمشاهد. ولاحظ بعينين جديدتين مهارة وجلد رفقائه في السفر. وسحرته على نحو خاص الحركات الجسدية للمهرجين، وكان العرض صامتاً، ولغته أكثر فصاحة الآن مما كانت عليه حين كان واحداً منهم. كان يمتلك إحساساً

بالحرية خسره حين كان مؤذياً. آه، ولكن، من الجيد أن يتخلص المرء من دوره، أن ينغمس في رتابة الحياة، ويصبح كالغبار ومع ذلك ... حسناً، ومن الجيد أن يعرف المرء أنه لا يزال جزءاً منه، وأنه لا يزال مفيداً، وربما أكثر فائدة هكذا. وأية أنانية أن يتخيل المرء أنه يقدم للبشر هدية كبيرة لأنه يستطيع أن يجعلهم يضحكون ويصيحون! لم يعد يتلقى التصفيق، ولا نوبات الضحك، ولا المداهنة. كان يتلقى شيئاً ما أفضل بكثير – ابتسامات دعم أفضل. ابتسامات امتنان؟ كلا. ابتسامات تعرّف. ولقد قُبلَ ثانية ككائن بشري، قُبل بالنسبة لنفسه، من أجل ما ميزه عن رفيقه الإنسان وما وحّده معه في الوقت نفسه. كان الأمر مثل الحصول على فكة قليلة، حين يكون الإنسان بحاجة إليها فإنها تجدد دفق القلب بطريقة لا تفعلها الأوراق النقدية مطلقاً.

وبهذه الابتسامات الدافئة التي كنزها كقمح ناضج، كان أوغست يتسع. ويزهر من جديد. لقد مُنح شعوراً من السخاء لا

يُستنفد، وكان متلهفاً دائماً لفعل أكثر مما هو مطلوبٌ منه. كان يمنح دون حساب . وكانت هناك عبارة يتمتمها على نحو متواصل وهو يقوم بمهماته: « هل من خدمة». وحين يتحدث مع الحيوانات يرفع صوته، إذ ليست هناك حاجة لإخفاء كلمات بسيطة كهذه عنها. «هل من خدمة»: سيقول للفرس، وهو يعلق حقيبة الطعام فوق عنقها. سيقول هذا للفقمات كذلك، وهو يملّس ظهورها. وفي بعض الأحيان، حين يسير باضطراب خارج الخيمة الكبيرة، إلى الليل المضاء بالنجوم، ينظر إلى الأعلى وكأنه يحاول اختراق الحجاب الذي يحجب أعيننا عن مجد الخلق، ويغمغم بنعومة وتبجيل: «هل من خدمة أيها السيد العظيم!»

لم يكن أوغوست قد عرف سلاماً كهذا، أو رضا، أو متعة مستمرة، وعميقة كهذه. وفي يوم دفع الرواتب كان يذهب إلى البلدة بكسبه الهزيل ويتجول عبر الحوانيت. باحثاً عن هدايا

كي يحضرها للأطفال – وللحيوانات كذلك. وكان يحضر لنفسه قليلاً من التبغ، ولا شيء أكثر.

وفي أحد الأيام مرض المهرج أنطوان. كان أوغوست يجلس أمام إحدى المركبات ويصلح بنطلونين قديمين، حين جاءته الأنباء. غمغم بضع كلمات تعاطف وتابع عمله. أدرك فوراً، بالطبع، أن هذا الحدث غير المتوقع يشمله. سيطلبون منه أن يحل مكان أنطوان، لا شك بذلك. حاول كبح الإثارة التي كانت تتصاعد فيه بسرعة. وحاول أن يفكر بهدوء واتزان بالجواب الذي سيقدمه حين تحين اللحظة. لا أحد آخر يمكن أن يأخذ مكان أنطوان، كان متأكداً من ذلك. ما الذي يكبحهم إذن؟ أخيراً نهض وبدأ يتجول، كي يجعلهم يعرفون أنه هنا فحسب، أنهم يستطيعون أن يطلبوا منه الطلب متى شاؤوا. مع ذلك لم يبذل أحد جهداً كي يخرطه في محادثة.

أخيراً قرر أن يحطم الجليد بنفسه. لماذا لا، في النهاية؟ لماذا لا يتطوع ويقدم خدماته؟ شعر بأنه محصّن، مليء بالإرادة

الطيبة نحو الجميع. لم يكن يعني له أي شيء على الإطلاق أن يصبح مهرجاً مرة أخرى. يستطيع كذلك أن يصير منضدة، كرسياً، سلماً، إذا احتاج الأمر.فهو لا يريد امتيازات خاصة؛ لأنه واحد منهم. ومستعد كي يقاسمهم أحزانهم ومصائبهم.

قال للمدير بعد أن أمسك به أخيراً: انظر ! أنا مستعدٌ كي آخذ مكان أنطوان الليلة. هذا هو الأمر. – ثم أضاف بعد تردد لحظة: «إلا إذا كان هناك آخر في ذهنك.»

«كلا، يا أوغوست، ليس هناك أحد آخر، كما تعرف. جيد منك أن تعرض ...»

رد أوغوست بحدة: «ولكن ماذا؟ هل أنت خائف من أنني لم أعد قادراً على الأداء؟»

«كلا، ليس هذا؛ ليس هذا. كلا، سيكون امتيازاً الحصول عليك ...»

«ولكن ماذا إذن؟» – قال أوغوست، وهو يرتجف من القلق، ذلك أنه أدرك الآن أنه مضطرٌ للتعامل مع الكياسة والذوق.

بدأ المدير بطريقته البطيئة والمتثاقلة: «حسناً، الأمر كالتالي، لقد كنا نناقش الأمر فيما بيننا. نعرف كيف هي أحوالك. والآن إذا كنت ستأخذ مكان أنطوان ... اللعنة، ما الذي أقوله؟ تعال، لا تقف هناك ناظراً إليّ هكذا! انظر، يا أوغوست، ما أحاول أن أقوله هو ... حسناً، فقط هذا ... لا نريد أن نفتح جراحاً قديمة. أتفهم؟»

شعر أوغوست بالدموع تندفع إلى عينيه. أمسك يدي الآخر الكبيرتين، حملهما بلطف بين يديه، دون أن يفتح فمه، سكب شكره.

توسل: «دعني آخذ مكانه الليلة. أنا لك طالما الأمر ضروري – لأسبوع، لشهر، لستة أشهر. سيمنحني هذا المتعة، هذه هي الحقيقة. لن تقول لا؟»

بعد ساعات جلس أوغوست أمام المرآة. يدرس وجهه. كان من عادته كل ليلة، قبل وضع الصبغة. أن يجلس ويحدق في نفسه لفترات فاصلة طويلة. كانت هذه طريقته في تجهيز نفسه للأداء. يجلس وينظر إلى وجهه الحزين ثم فجأة يبدأ بمحو هذه الصورة فارضاً أخرى جديدة، واحدة يعرفها الجميع وكانت تُقبل في جميع الأمكنة كأوغوست. لم يعرف أحد أوغوست الحقيقي، وكذلك أصدقاؤه. ذلك أنه أصبح منعزلاً بسبب الشهرة.

وهو جالس هناك: تغزوه ذكريات آلاف الليالي الأخرى أمام المرآة، بدأ أوغوست يدرك أن حياته في العزلة، هذه الحياة التي حرسها بغيرةٍ كحياته الخاصة، هذا الوجود السري الذي من المفترض حفظ هويته، لم تكن حياة مطلقاً. لم تكن شيئاً في الحقيقة. لم تكن حتى ظل حياة. ولقد بدأ يعيش فحسب من اليوم الذي قبلته فيه الفرقة، من اللحظة التي بدأ يقوم فيها بالأعمال الأكثر تواضعاً. ولقد تلاشت الحياة السرية تقريباً دون

أن يعرف ذلك، لقد صار مرة أخرى رجلاً مثل الرجال الآخرين، يقوم بجميع الأمور الحمقاء، والتافهة، والضرورية التي يقوم بها الآخرون – لقد كان سعيداً هكذا، كانت أيامه غنية. والليلة لن يظهر كأوغوست، المهرج المحتفى به عالمياً، وإنما كأنطوان الذي لم يسمع به أحد. ولأن أنطوان لا يمتلك اسماً أو شهرة، فقد كان يُقبل كل ليلة كشيء متوقع. لا يتبع خروجه من الحلبة تصفيق وحشي، وكان الناس يبتسمون ببساطة وتسامح، دون أن يظهروا أي تقدير آخر لفنه أكثر من الذي يظهرونه للأعمال البهلوانية المذهلة المثيرة التي تقوم بها الفقمات.

فجأة، عند هذه النقطة، حطمت فكرةٌ مزعجة حلم يقظته.

حتى الآن كان يعيش تلك الحياة المنعزلة، الفارغة، التي صارع كي يحجبها عن عين الجمهور. لكن ماذا إذا تعرف عليه أحد ما في هذا المساء؟ ماذا إذا تعرف أحد ما على أوغوست، المهرج؟ سيكون هذا كارثة! لن يحظى مطلقاً بالسكينة مرة

أخرى، سيُطارد من بلدة إلى أخرى، ويجبر على شرح سلوكه الغريب. ويُزعج كي يستأنف مكانه الصحيح في عالم المؤدين الأساسيين. وبطريقة ما غامضة أحسّ أنه يمكن حتى أن يتهموه بقتل أوغوست. أصبح أوغوست صنماً - إنه ينتمي إلى العالم. لا يعرف أية مسافات سوف يجتازون كي يضايقوه ...

كان هناك قرعٌ على الباب. دخل أحدهم فجأة كي يرى إن كان كل شيء يسير على ما يرام. وبعد بضع كلمات تحقق أوغوست عن حال أنطوان.

«آمل أنه يتحسن؟»

قال الآخر بجدية: «كلا. يبدو أن حالته تزداد سوءاً. لا أحد يعرف ما الذي حلّ به. ربما ستقول له كلمة قبل أن تدخل، أليس كذلك؟»

قال أوغوست: « بالتأكيد، سأكون معك بعد بضع دقائق».

- وتابع وضع المساحيق.

كان أنطوان يتمايل محموماً حين دخل أوغوست. منحنياً فوق الرجل المريض، تناول أوغوست يد أنطوان المبللة في يده وتمتم: « أيها المسكين، ما الذي أستطيع فعله من أجلك؟»

حدق أنطوان به مرتبكاً لعدة دقائق بدت طويلة وعلى وجهه تعبير امرئ ينظر إلى نفسه في المرآة. وببطء فهم أوغوست ما كان يدور في ذهن أنطوان. «هذا، أنا، أوغوست»، – قال بهدوء.

قال أنطوان: « أعرف أنه أنت ... لكن يمكن أن أكون أنا كذلك. لا أحد سيلاحظ الفرق. وأنت عظيم أما أنا فلم أكن شيئاً أبداً.»

قال أوغست وعلى محياه ابتسامة حزينة: « كنتُ أفكر بهذا الشيء نفسه منذ بضع لحظات. هذا مضحك، ماذا! قليل من الصبغة الزيتية، كيس هوائي، زي مضحك – لا تحتاج إلاّ إلى قليل من الوقت لجعل نفسك نكرة! هذا ما هو نحن – نكرة. والجميع في الوقت نفسه. إنهم لا يصفقون لنا وإنما

لأنفسهم. يا صديقي العزيز، ينبغي أن أذهب بعد لحظة، ولكن دعني أخبرك أولاً شيئاً بسيطاً تعلمته مؤخراً ... أن تكون نفسك، نفسك فحسب، لهو شيء عظيم. وكيف يفعل المرء ذلك، كيف يخرجه إلى الضوء ؟ آه، هذه هي الخدعة الأكثر صعوبة. وهي صعبة فقط لأنها لا تنطوي على جهد. وأنت حاول ألا تكون شيئاً واحداً أو آخر، لا تكن عظيماً أو صغيراً، ذكياً أو أخرق ... هل تفهمني؟ إفعل كل ما يأتي إليك. اِفعله بنية حسنة. ذلك لأنه ليس هناك أي شيء غير مهم. لا شيء. وبدل الضحك والتصفيق ستتلقى الابتسامات. ابتسامة صغيرة دالة على الرضا – هذا كل شيء. لكنه كل شيء ... أكثر مما يستطيع المرء أن يطلبه. تجول وقم بالأعمال القذرة، أرح الناس من أعبائهم. هذا يسعدهم، لكنه يجعلك أكثر سعادة، أتفهم؟ وبالطبع يجب أن تقوم بذلك على نحو غامض. يجب ألا تجعلهم يعرفون أية متعة يمنحك هذا بتاتاً. حالما يعرفونك، ويكشفون سرك، ستضيع. سيلقبونك بالأناني، بغض النظر عن

الكثير الذي تفعله من أجلهم. بوسعك أن تفعل كل شيء من أجلِهم –حرفياً اقتل نفسك على النير ؟ – طالما أنهم لا يشتبهون بأنهم يغنونك، ويمنحونك متعة لا تقدر أن تمنحها لنفسك بتاتاً ... حسناً، اعذرني، يا أنطوان. لم أنو أن ألقي خطاباً طويلاً. على أي حال، الليلة من يقدم لي هدية هو أنت. الليلة أستطيع أن أكون نفسي عبر كوني أنت. وهذا أفضل من أن تكون نفسك يا رفيقي ؟»

هنا تفحص أوغوست نفسه، ذلك أنه حين عبَّر عن هذه الفكرة الأخيرة اكتشف فكرة عبقرية. ولم تكن فكرة تقال لأنطوان فوراً. إنها تنطوي على مجازفة معيّنة، وربما على عنصر خطر. لكنه لن يفكر بذلك. يجب أن يُسرع الآن، ويفعل ذلك بالسرعة الممكنة ... هذه الليلة ربما.

قال بفظاظة، مستعداً للمغادرة: « انظر، يا أنطوان، سوف أقوم بالعمل الليلة، وربما ليلة الغد، لكن بعد ذلك من الأفضل أن تغادر الفراش. لستُ متلهفاً كي أصبح مهرجاً مرة أخرى،

أتفهم؟سأزورك في الصباح. هناك المزيد الذي أريد أن أطلعك عليه، شيء ما سوف يجعلك أكثر بهجة!» – توقف للحظة ونظف حنجرته – «فقط تذكر هذا! إنني أطوّر فكرة: وأنت من سيستفيد منها. والآن نم جيداً، لقد أطلت!» ربّت على أنطوان بفظاظة، كأنه يريد أن يدفعه إلى السعادة. وهو يتحرك إلى الباب التقط إيحاء ضعيفاً بابتسامة تتحدّر على شفتي أنطوان. أغلق الباب بهدوء وسار على أصابع قدميه خارجاً إلى الظلمة.

وحين خطا إلى الخيمة الكبيرة، مدندناً لنفسه؛ بدأت الفكرة التي هيمنت عليه منذ بضع لحظات تتشكّل بوضوح أكبر. لم يكد يستطيع انتظار إشارة دوره، وكان متحمّساً كي ينفذ خطته. «الليلة» – قال لنفسه وهو يمضغ اللقمة – «سوف أقوم بأداء لم يرَ أحدٌ مثله من قبل. فقط انتظري، يا أحصنتي buckos، انتظري فحسب إلى أن تتم الغلبة لأوغوست».

دفع نفسه إلى حالة من فقدان الصبر، جنونية، فحين ظهر في ضوء خشبة المسرح، ترافقه بضعة أنغام من الكمان، كان يطفر كمعزاة مجنونة. ومن اللحظة التي لمست فيها قدماه النشارة أدّى عروضاً ارتجالية خالصة. ولم يفكر مطلقاً من قبل بواحدة من هذه الرقصات الوحشية، التي تخلو من الإحساس، ولم يتمرن عليها. منح نفسه سجلاً يجب أن يكتب عليه اسم أنطوان بأحرف من المتعذّر محوها. ولو كان أنطوان هناك، لشهد ظهوره كنجم عالمي!

وفي غضون بضع دقائق أدرك أوغوست أنه يحمل الجمهور على راحة كفه ونادراً ما كان مستعداً للعمل هكذا. « انتظروا، انتظروا يا صبياني!» تابع الغمغمة وهو يقذف نفسه: «لم تروا شيئاً بعد! إن أنطوان قد ولد لتوّه، لم يبدأ بعد بالرفس بقدميه.».

انتهت المسرحية الهزلية الابتدائية، وعلى الفور وجد نفسه محاطاً بمجموعة مهتاجة وبينهم كان المدير: « لا بد أنك

مجنون!» – كانت كلمات المدير الأخيرة – «هل تحاول أن تدمر أنطوان؟»

قال أوغوست محمراً من المتعة: «لا تخف. أنا أصنع أنطوان. اصبر. أؤكد لك أن الأمر سينتهي على ما يرام.»

«لكن الأمر جيد جداً، هذا ما أنا أتذمر منه. بعد هذا الأداء سينتهي أنطوان.»

لم يكن هناك وقتٌ لمزيد من الكلمات. يجب إخلاء الحلبة لفناني أرجوحة البهلوان. وبما أن المجموعة صغيرة. كان على كل عنصر فيها أن يعمل بحيوية.

عندما حان وقت ظهور المهرجين مرة أخرى حدث انفجار تصفيق مطوّل. ونادراً ما كان أوغوست يظهر رأسه حين ينفجر الجمهور بالهتافات. «أنطوان! أنطوان!»– كانوا يصيحون. خابطين بأقدامهم، يصفرون، ويصفقون بمتعة.«نريد أنطوان!»

وعند هذه النقطة من مسرحية المساء جاء دور أنطوان ليقدم رقصاً منفرداً. والذي هو بالأحرى فعل صغير متآكل تبخر منه

آخر نفس ابتكار منذ سنين. وهو يراقب هذا الروتين ليلة بعد أخرى، غالباً ما فكر أوغوست، بينه وبين نفسه، كيف سيبدل جميع الأدوار الصغيرة، لو كان ملزماً أن يقوم بذلك. ولقد وجد نفسه الآن ينفّذ الخدع التي غالباً ما تمرّن عليها، أحياناً في نومه. وشعر كثيراً بأنه معلم يضع اللمسات النهائية على صورة هجرها طالب مهملٌ. وعدا الموضوع لن يبقى شيء من الأصل. واحدة بدأت بلمسها هنا وهناك، وأخرى انتهت من خلال خلق شيء جديد كلياً.

وذهب إليها أوغوست كمهووس مُلهَم. ليس هناك شيء يفقده. على العكس، هناك إمكانية لكسب كل شيء. كانت كل فتلة أو تجديد في الطريقة فرصة جديدة في العيش لأنطوان. وفيما هو يتابع إكمال الدورة من طور إلى آخر، قام أوغوست بملاحظات ذهنية كي يشرح لأنطوان بالضبط كيف يعيد إنتاج التأثيرات التي كان ينجزها. كان يثب كثلاثة أشخاص مختلفين في الوقت نفسه: أوغوست المعلم، وأوغوست

كأنطوان، وأنطوان كأوغوست. وفوق ووراء هؤلاء رفرف كيان رابع سوف يتبلور ويصبح أكثر تبدياً مع مرور الزمن: أنطوان كأنطوان. أنطوان مولود من جديد. أنطوان الذي في المرتبة الأعلى. وكلما ازداد تفكيره بهذا الأنطوان (كان مدهشاً كيف يستطيع الانغماس بهذا القدر من التأمل فيما هو يبدي رأياً) يصبح حذراً من حدود حساسية الشخص الذي يعيد خلقه. كان يتابع التفكير بأنطوان وليس بأوغوست. كان أوغوست ميتاً. لم يكن عنده أدنى رغبة في أن يراه متقمصاً في أنطوان المشهور عالمياً. كان اهتمامه كله منصباً على جعل أنطوان مشهوراً كي لا يكون هناك بعد الآن ذكر لأوغوست.

في الصباح التالي ضجّت الصحف بمدائح لأنطوان. ولقد شرح أوغوست، طبعاً، مشروعه للمدير قبل أن يستقيل في تلك الليلة. ولقد اتفق على القيام بكافة الاحتياطات للحفاظ على سرية الخطة. وبما أنه لا أحد سوى أعضاء الفرقة يعرفون

بمرض أنطوان، وبما أن أنطوان نفسه لا يزال يجهل المستقبل العظيم الذي أُعِدَّ له، بدت وجهة النظر نسبياً مبهجة.

وبالكاد استطاع أوغوست أن ينتظر القيام بالزيارة الموعودة لأنطوان. لقد قرر أن لا يريه الصحف على الفور، ويطلعه على ما يأمل أن ينجزه أثناء الأيام القليلة القصيرة التي سيكون فيها أنطوان غير مؤهل للقيام بذلك. يجب أن يربح أنطوان قبل أن يكشف له المدى الكامل لإنجازه، وإلا سيُكره أنطوان على قبول نجاح اكتسبه جاهزاً. ولقد تمرن أوغوست على كل هذا خطوة خطوة قبل أن يسير إلى مأوى أنطوان. ولم تخطر له في أية مرة أن ما سوف يقترحه حالاً كان خارج مقدرة أنطوان على القبول.

تماسك إلى الظهيرة تقريباً، آملاً أنه في ذلك الوقت سيكون أنطوان في المزاج الملائم كي يستقبله. حين انطلق كان مرحاً. كان متأكداً أنه يستطيع أن يقنع أنطوان بأن الميراث الذي سيتركه له شرعي.«في النهاية»– قال لنفسه– «إنني أقدم له دفعة قليلة فحسب. الحياة مليئة بالخدع الصغيرة التي يجب

أن ننتفع منها. لا أحد يذهب إلى هناك وحيداً، دون مساعدة.»
وبعد أن أزاح هذا عن صدره بدأ يهرول. وتابع: «أنا لا أخدعه أو أسرقه. كان دوماً يريد أن يصبح مشهوراً، والآن هو مشهور! أو سيكون مشهوراً بعد أسبوع من الآن. أنطوان سيكون أنطوان... أكثر من هذا فحسب. هذا كل ما في الأمر. كل ما تحتاجه أحياناً هو حادث صغير، خدعة حظ، دفعة من الخلف، وها أنت هناك – في الخارج في ضوء المسرح وعلى الأربع».

وهنا تذكر صعوده المفاجئ إلى الشهرة. ما الذي كان عليه هو أوغوست أن يفعل بها؟ ما كان مجرد حادث صُفّق له بين عشية وضحاها كضربة عبقرية. كم كان فهم الجمهور قليلاً! وكم يكون فهم أي شخص قليلاً حين يتعلق الأمر بالقدر. أن تكون مهرجاً هو أن تكون بيدق القدر. الحياة في الساحة عرض أخرس يتألف من سقطات، وصفعات، ورفسات – جر للقدمين ورفس لانهائيين. وبواسطة هذا rigolade المخزي يجد المرء

شعبية لدى الجمهور. المهرج المحبوب! كان امتيازه الخاص أن يمثّل ثانية الأخطاء، الحماقات، الغباء، جميع حالات سوء الفهم التي تمرض النوع البشري. أن تكون غير كفء، كان هذا شيئاً حتى الولد الأكثر بلادة يستطيع أن يفهمه. أن لا تفهم، حين يكون كل شيء واضحاً كضوء النهار. أن لا تعي، رغم أن الخدعة تُكرر أمامك ألف مرة، أن تتلمس طريقك كأعمى؛ حين تشير جميع اللافتات إلى الجهة الصحيحة، أن تصر على فتح الباب الخطأ، رغم أنه مكتوب عليه كلمة خطر!، أن تسير مباشرة إلى المرآة، بدلاً من أن تستدير حولها، أن تنظر عبر ماسورة بندقية، بندقية مذخرة! – البشر لا يتعبون بتاتاً من هذه السخافات لأن بحثهم وتساؤلهم قادهم، طول آلاف الأعوام، إلى طريق مسدود. إن المعلم غير الكفء يمتلك الزمن كله كملكية. ولا يستسلم إلا في وجه الأبدية ...

وكان أوغوست وسط انشغالات غريبة كهذه حين شاهد مركبة أنطوان. ولقد روّعته نوعاً ما... رغم أنه لم يعرف

السبب، رؤية المدير يأتي نحوه من جانب فراش أنطوان على ما يبدو. وازداد خوفه حين رفع المدير يده، مشيراً له أن يتوقف حيث هو. أما التعبير الذي على وجه الرجل فقد أيقظ في أوغوست شعور ذعر مميّزاً. وقف حيث كان، مطيعاً، منتظراً الآخر أن يفتح فمه.

وعلى بعد بضعة أقدام من أوغوست ، رفع الرجل، فجأة، ذراعيه إلى الأعلى في إيماءة يأس واستقالة. ولم يكن أوغوست بحاجة إلى سماع أية كلمة، ذلك أنه عرف حينئذ ماذا يتوقع.

سأل أوغوست بعد أن سارا بضع ياردات: «ولكن متى حدث هذا؟»

«منذ بضع لحظات فحسب. هكذا، حدث الأمر، تماماً بين ذراعيّ.»

غمغم أوغوست: « لا أفهم. ما الشيء الذي قتله؟ لم تكن حالته سيئة الليلة السابقة حين تحدثت إليه.»

قال الآخر: « بالضبط.»

كان هناك شيء ما حيال كلمة «بـالضبط» جعـل أوغوسـت يقفز.

« أنت لا تعني ...؟» – توقف ؛ كان الأمـر فنتازيـاً جـداً، رفض أن يضمر الفكرة. ولكن في اللحظة التالية نطق بـها تمامـاً نفسها: «أنت لا تعني»، – وهنا تلعثـم مـرة أخـرى ، « أنـت لا تعني أنه سمع...؟».

« بالضبط.»

قفز أوغوست ثانية.

وتابع المدير بالنبرة المهتاجة نفسها: « لو سئلتُ عـن رأيـي الصريح فسوف أقول إنه مات من قلب محطم».

بهذا الكلام توقف الاثنان على نحو مفاجئ.

قال المدير: «انظر، هذا ليـس خطـأك. لا تتـأثر بـه كثـيراً. أعرف، ونعرف جميعاً، أنك بريء. على أي حـال ،مـن المؤكـد أن أنطوان لن يصبح مهرجاً كبيراً بتاتـاً ، لقـد أقـر بعجـزه منـذ فترة طويلة.» – وهامساً غمغم شيئاً ما ، ثم تابع مطلقاً تنهيدة –

«المسألة هي كيف سنشرح أداء ليلةِ البارحةِ؟ سيكون مِن الصعب أن نخبئ الحقيقة الآن، أتوافق، أليس كذلك؟ لم نتوقع مطلقاً موته المفاجئ. أليس كذلك؟»

كان هناك فاصل صمت، بعده قال أوغوست بهدوء: «أعتقد أنني أحب أن أكون وحيداً برهة، أيزعجك هذا؟»

«حسناً» -قال المدير.« فكر بالأمر بنفسك. لا يزال هناك وقت...» لم يضف لماذا.

شديد الاضطراب، وواهن العزيمة، تجول أوغوست سائراً نحو البلدة. سار وقتاً طويلاً دون أن تكون هناك فكرة واحدة في رأسه، وإنما ألم من نوع بليد، وخدر يخترق جسده كله. أخيراً جلس على حافة ترّاس وطلب شراباً كحولياً. كلا، ومن غير ريب، لم يحسب أبداً نهاية كهذه. خدعة أخرى قام بها القدر. شيء واحد كان في غاية الوضوح - إما ينبغي عليه أن يكون أوغوست مرة أخرى أو أنطوان. لم يعد قادراً أن يبقى غفلاً. وبدأ يفكر بأنطوان، بأنطوان الذي مثل شخصيته ليلة

البارحة. هل سيقدر على الاستمرار في الأمر ثانية، هذا المساء: بهذا النشاط والحيوية الهائلة؟ نسي كل ما يتعلق بأنطوان الذي يتمدد بارداً وميتاً في العربة. ودون أن يدرك ذلك، ارتدى حذاء أنطوان. تمرّن على الدور بدقة، وهو يحلله، ويفككه وينتقده، ويرقعه، ويحسّنه في بعض المواضع ... واستمر في الأمر، من دور إلى آخر، ومن جمهور إلى آخر، ليلة بعد ليلة، بلدة بعد بلدة. ثم فجأة استيقظ. فجأة وقف على مقعده، وبدأ يتحدث مع نفسه بجدية.«إذن، سوف تصبح مهرجاً مرة أخرى، أليس كذلك؟ لم تكتف بعد، إيه؟ لقد قتلت أوغوست، وقتلت أنطوان ... من التالي؟ منذ يومين فحسب كنت رجلاً سعيداً، حراً. الآن أنت في المصيدة، وغارق في الجريمة إلى قدميك. وتفترض، أليس كذلك، أنك تستطيع. بضمير مذنب، أن تجعل الناس يضحكون؟ آه لا. هذه يحمل الأمر بعيداً!» وضع أوغوست قبضة يده على المنضدة ذات السطح الرخامي، كأنه يريد أن يقنع نفسه بجدية كلماته. «أداء عظيم ليلة البارحة.

ولماذا؟ لأنه لم يشتبه أحد أن الرجل الذي جعله عظيماً كان أوغوست المشهور. كانوا يصفقون للموهبة، العبقرية. لم يكن بوسع أي شخص أن يعرف. تام. نصر تام. و – وهو المطلوب إثباته.» مرة أخرى وقف، كحصان؟«كيف هذا – المطلوب إثباته؟ آه، إذن هذا هو الأمر. لهذا كان أوغوست متلهفاً جداً كي يأخذ مكان أنطوان. ولم يهتم أوغوست على الإطلاق إن كان أنطوان سيصبح عظيماً أم لا، هل اهتم؟ نعم أم لا؟ لم يهتم أوغوست إلا بالتأكد من أن السمعة التي خلقها تنتمي إليه فعلاً. لقد قفز أوغوست إلى الطعم مثل سمكة.بإه!» بصق قليلاً من اللعاب بقرف.

جفّتْ من الإثارة فصفق بيديه وطلب شراباً آخر.«يا إلهي! – استأنف بعد أن بلل حنكه– » التفكير بأن إنساناً يستطيع أن ينصب فخاخاً كهذه لنفسه! سعيد في يوم واحد، تعيس في التالي. يا لي من أحمق! يا لي من أحمق!» – هنا فكر للحظة بتروٍ – «حسناً، هناك شيء واحد أفهمه الآن : كانت سعادتي

حقيقية ولكن غير مكتشفة؟ علي أن أعيد أسرها، ولكن هذه المرة بصدق. يجب أن أتمسك بها بيدي الاثنتين وكأنها جوهرة ثمينة. يجب أن أتعلم أن أكون سعيداً مثل أوغوست، كالمهرج الذي هو أنا.»

تناول جرعة أخرى من النبيذ، ثم هزَّ نفسه مثل كلب – «ربما هذه فرصتي الأخيرة، سأبدأ من القاع مرة أخرى»– ثم بدأ يفكر باسم جديد لنفسه. وأخذته هذه اللعبة بعيداً. واستأنف، بعد أن نسي مسبقاً الاسم الذي قرر أن يختاره: «نعم، سأقوم بشيء جديد، شيء جديد كلية. وإذا لم يجعلني سعيداً فعلى الأقل سيجعلني متيقظاً. ربما أميركا الجنوبية ...»

كان قرار البدء من جديد قوياً جداً مما جعله يركض بسرعة إلى أرض المعرض. وذهب فوراً للبحث عن المدير.

قال لاهثاً: «لقد تقرر الأمر، سأغادر فوراً، سأذهب بعيداً جداً حيث لن يعرفني أحد. سوف أبدأ من جديد.»

قال الكبير مندهشاً: «ولكن لماذا؟ لماذا عليك أن تبدأ من جديد بعد أن حققت شهرة كبيرة؟»

«لن تفهم ولكنني سأقول لك الكلام نفسه. *لأنني أريد أن أكون سعيداً هذه المرة*».

«سعيد؟ لا أفهم. لماذا سعيد؟»

«لأن المهرج لا يكون عادة سعيداً إلا إذا كان شخصاً آخر. لا أريد أن أكون سوى نفسي.»

«لا أفهم كلمة من هذا ... اسمع، يا أوغوست...»

قال أوغوست، عاصراً يديه: «انظر، ما الذي يجعل الناس يضحكون ويبكون حين يتفرجون علينا؟»

«يا عزيزي، ما علاقة كل هذا بالأمر؟ هذه أسئلة أكاديمية. لنتحدث كلاماً معقولاً. لنصبح واقعيين.»

قال أوغوست بجدية: «هذا ما اكتشفته لتوي. الواقع! هذه هي الكلمة الملائمة للأمر. الآن أعرف من أنا، ماذا أنا، وما

الذي يجب أن أفعله. هذا هو الواقع. ما تدعوه أنت بالواقع هو نشارة: يتفتت، ينزلق عبر الأصابع.»

بدأ الآخر، وكأنه يتوسل إلى شخص مفقود: «كنت تفكر كثيراً. لو كنت مكانك لعدت إلى البلدة ونمت جيداً. لا تحاول اتخاذ قرار الآن. هيا ...»

قال أوغوست بحزم: «كلا، لا أريد عزاء، أو نصيحة. لقد قررت.» ومد يده للوداع.

قال الشخص الكبير محدّباً كتفيه: «كما تشاء. إذن هذا وداع، أليس كذلك؟»

قال أوغوست: «نعم، إنه وداع ... إلى الأبد.»

ومرة أخرى انطلق في العالم، إلى داخل أحشائه. وحين اقترب من البلدة، استبد به شعور أنه لا يملك إلا بعض القطع النقدية في جيبه. سيجوع بعد بضع ساعات. سيبرد الجو، ثم مثل الوحوش في الحقل، سوف ينطوي ويستلقي منتظراً أشعة الشمس الأولى.

لم يعرف لماذا اختار أن يسير عبر البلدة، مطارداً جميع الشوارع إلى النهاية. ومن المحتمل أنه استعاد قوته لتوه.

«وإذا وصلت إلى أميركا الجنوبية في أحد الأيام ... ؟» -بدأ يتحدث مع نفسه - «يمكن أن يستغرق هذا أعواماً. وأية لغة سوف أتحدث؟ ولماذا سيأخذونني، أنا الغريب والمجهول؟ ومن يعرف إن كانوا يمتلكون سيركاً في أمكنة كهذه. وإذا كانوا يمتلكون واحداً فإن لديهم مهرجين خاصين ولغتهم الخاصة.»

بعد أن وصل إلى حديقة صغيرة، ارتمى على مقعد.«يجب أن أفكر بهذا الأمر بانتباه كبير» - حذّر نفسه - «لا يذهب المرء إلى أميركا الجنوبية كيفما اتفق. *فأنا لست قطرساً*، بحق الله! أنا أوغوست، رجل بقدمين رقيقتين ومعدة تحتاج إلى أن تُملأ.» وبدأ يحدد المواصفات الإنسانية التي تميزه، هو أوغوست، عن طيور الجو ومخلوقات الأعماق واحدة بعد أخرى. وأخيراً انحسرت تأملاته إلى تفكير مطوّل بهاتين الصفتين، أو الملكتين، اللتين تفصلان. على نحو أكثر وضوحاً،

عالم البشـــر عـن المملكـة الحيوانيـة: إنـهما الضحـك والدمـوع.
غريب!– فكـــر في نفسـه– أن يتوجـب علـى المستقر في هـذه
المملكة أن يفكر بالموضوع كطالب مدرسة.
«*لكنني لستُ قطرساً!*» هذه الفكرة، التي ليســت بالتـأكيد
متألقة، واصلت تكررها وهو يقلب مأزقه إلى السـوراء وإلى الأمـام.
وإذا لم تكن فكرة أنه لا يقدر أن يعتبر نفسه، بأي تمديد ممكن
للخيــال، قطرســاً، أصيلــة أو متألقــة، فــهي مـع ذلـــك،
مريحة،ومطمئنة جداً لأوغوست.
أميركـا الجنوبيـة – يـا للـهراء! لم تكـن المشـكلة إلى أيـن
يذهب أو كيف يصـل إلى هنـاك، كـانت المشكلة ... حـاول أن
يصوغها لنفسه ببساطة شديدة. ألم يكن الأمر هذا فحسب، أنه
ربما كان في وضع صحيح كما كان – دون أن يقلل من قيمتـه أو
يزيدها؟ كان الخطأ الذي اقترفه هو أنه تخطى حدوده. لم يكن
راضيـاً مـن مجـرد إضحـاك النـاس،ولهـذا حـاول أن يمنحـــهم

المتعة. ولكن المتعة شيء يمنحه الله. ألم يكتشف هو هذا حين هجر نفسه – حين كان يقوم بأي عمل متاح. كما قال مرة؟

وشعر أوغوست أنه كان يجلس في مكان ما. وبدأ يدرك أن مأساته الحقيقية تكمن في حقيقة أنه لم يكن قادراً أن يوصل معرفته بوجود عالم آخر، عالم وراء الجهل والضعف، وراء الضحك والدموع. كان هذا الحاجز هو الذي أبقاه مهرجاً. مهرج الله الخاص، وليس هناك أحد كي يوضح له مأزقه.

فوراً وفي المكان نفسه فهم – كم كان هذا بسيطاً ! – أنه أن يكون لا أحداً أو أي أحد أو الجميع لا يمنعه من أن يكون نفسه. إذا كان بالفعل مهرجاً، إذن يجب أن يتابع كونه كذلك، من وقت استيقاظه في الصباح إلى أن يُغمض عينيه. يجب أن يكون مهرجاً في جميع الأوقات. للتأجير أو من أجل مجرد كونه كذلك. وهكذا صار مقتنعاً على. نحو غير قابل للتبديل، بحكمة ما جاع كي يبدأه على الفور – دون مساحيق. دون زي. حتى دون رفقة الكمان القديم. وهكذا سيكون نفسه

على نحو مطلق ولن يكون هناك أي شيء قابل للتعرف سوى الحقيقة، التي تحترق الآن في داخله كالنار.

مرة أخرى أغمض عينيه، كي يهبط في الظلمة. بقي هكذا فترة طويلة، يتنفس بهدوء وسلام على سرير كينونته الخاصة. حين فتح عينيه شاهد عالماً أزيح عنه الحجاب. كان العالم الذي وجده دوماً في قلبه، الجاهز دائماً كي يتجلى، ولكن الذي لا يبدأ بالخفقان إلا في اللحظة التي يخفق فيها المرء في انسجام معه.

وكان أوغوست في غاية التأثر فلم يقدر على تصديق عينيه. حكهما بقفا يده ليكتشف أنهما لا تزالان مبللتين بدموع المتعة التي ذرفها دون معرفة منه. جلس كالسهم استقامة، بعينين تحدقان مباشرة أمامه، مصارعاً كي يعدل البصر مع الرؤية. من أعماق كينونته صدرت تمتمة شكر لا تتوقف.

نهض عن المقعد تماماً حين كانت الشمس تغمر الأرض بآخر توهج ذهبي. وماجت القوة والحنين في شرايينه. مولوداً

مـن جديـد، قـام ببضـع خطـوات إلى الأمـام إلى عـــالم الضــوء السـحري.غريزياً. كما يطير طائرٌ، نشر ذراعيه في عناق شامل.

كانت الأرض تتلاشــى في اللـون البنفسـجي العميـق الـذي يندفـــع في الغســـق. حـــل دوار النشــوة في أوغوســـت. «أخيراً،أخيراً!» صرخ؛ أو اعتقد أنه صرخ: ذلك أنه في الواقـع لم تكن صرخته سوى صدى باهت للمتعة الهائلة التي هدهدته.

كان هناك رجل يتقدم نحـوه. رجـل يرتـدي بذلـة ومسلح بهراوة. بالنسبة لأوغوست ظهر كملاك الخلاص. كان أوغوست على وشك أن يرمي نفسـه بـين ذراعـي مخلصـه حـين صرعتـه غيمة من الظلمة كضربة مطرقة. ارتمى عند قدمي الضـابط دون أن يصدر صوتاً.

عـابران شـاهدا المشـهد اقتربـا راكضـين. انحنيـا وقلبـا أوغوست على ظهره. ولدهشـتهما كـان يبتسـم.كـانت ابتسـامة عريضـة ملائكيـة يبقبـق منـها الـدم ويقطـر. كـانت العينـان مفتوحتين، تحدقان بصراحـة لا تُصـدق بالفخـة النحيلـة لقمـر أصبح مرئياً؛ لتوه، في السماء.

خاتمة

من بين جميع القصص التي كتبتها ربما كانت هذه القصة الأكثر تفرداً. لقد كُتبت خصِّيصاً لفرناند ليجر، كي ترافق سلسلة من أربعين صورة توضيحية للمهرجين والسيركات[1] .

استغرق الأمر معي شهوراً، بعد أن قبلت دعوة ليجر كي أكتب النص، حتى كي أبدأ. ورغم أنني مُنحتُ حرية كاملة،

[1] - أرغم ليجر على رفض نصي واعتبره غير ملائم وبالتالي كتب نصاً بنفسه لكتابه الأنيق الذي يُدعى السيرك

شعرتُ بالإحباط. لم يسبق أن كتبت من قبل قصة تلبية لطلب كما هو الأمر الآن.

بدأ ذهني يدور حول هذه الأسماء بهوس تقريباً: Rouault، ميرو، شاغال، ماكس جاكوب، سورا[1]. وتمنيتُ أن يُطلب مني رسم الصور التوضيحية بدلاً من كتابة النص. في الماضي رسمتُ بالألوان المائية رسومات للمهرجين، إحداها تُدعى «سيرك مدرانو». وكان أحد المهرجين الذين رسمتهم يشبه مارك شاغال كثيراً، كما قيل لي، رغم أنني لم ألتق بشاغال ولم أشاهد له صورة فوتوغرافية بتاتاً.

وبينما كنتُ أصارع كي أبدأ، وقع بين يدي كتاب صغير من تأليف والاس فاولي* فيه مقالة مؤثرة عن مهرجي Rouault. وفيما كنتُ أتأمل حياة وعمل Rouault اللذين أثرا بي بقوة،

(!)

– ليلة جاكوب من تأليف والاس فاولي، شيد آند وورد . نيويورك، 1947.

بدأت أفكر بالمهرج الــذي هوَ أنـا، الـذي كنتـه دومـاً. فكـرتُ بهيامي بالسيرك، وخاصة the cirque intime ، وكيـف أنـه مـن المؤكـد أن جميـع تجـاربي كمشـاهد ومشـارك صامت تسـتلقي مدفونة عميقاً في وعيي. تذكرتُ كيف، أنني حـين سـئلت بعـد تخرجي من الثانوية، ماذا أنوي أن أصبح، أجبت بـأنني أريـد أن أصبح «مهرجاً!» وتذكرت كيف أن كثـيرين مـن أصدقـائي كـانوا مثـل المـهرجين في سلوكهم – وكـانوا الأشـخاص الذيـن أحببتهم أكثر من غيرهم. وفيمـا بعـد اكتشـفتُ، لدهشـتي، أن أكثر أصدقائي حميمية ينظرون إليّ كمهرج.

عندها أدركتُ فجأة أي تأثير تركه علي كتاب والاس فاولي – الوحيد الذي قرأته له –: مهرجون وملائكة. تحـدث بلـزاك معي عـن الملائكـة (في لويـس لامبـيرت) و، عـبر divagations والاس فاولي الكثيرة حول المهرج، اكتسبتُ بصيرة جديدة حـول دور المهرج. المهرجون والملائكة هو ملائمـون علـى نحـو مقـدس لبعضهم بعضاً.

فضلاً عن ذلك، ألم أكتبُ أنـا نفسـي. في مكـان مـا. عـن أوغوسـت أنغسـت و Guy le Crevecoeur من كانـا هذيـن الروحـين اليائسـتين، والمحبطتـين والمتـألمتين إن لم يكونـا أنـا نفسي؟

ثم هناك شيء آخر ... إن اللوحة الأكثر نجاحاً التي سبق وأنجزتـها كانت رأس مهرج منحته فمين، واحداً للمتعة وواحداً للألم. كان الفم الفرح باللون القرمزي - كان فماً مغنياً. (متذكراً ذلك، أدركت أنني توقفت عن الغناء!)

بين وقت وآخر كنـت أتلقـى بضعـة ماكيتـات مـن ليجـر. إحداهمـا تظـهر رأس حصـان. وضعـت هـذه الأشـياء في درج، ونسيتها، وبدأت أكتب. ولم أعرف بتاتاً من أين حصلـت علـى الحصان إلى أن أنهيت القصة. وبالطبع: كان السـلم هديـة مـن ميرو، والقمر كذلك. (كلب ينبح على القمـر كـانت أول لوحـة شاهدتها لميرو.)

ثم بدأت بنفسي، واعتقدت بأنني أملك في داخلي كل ما يمكن معرفته عن المهرجين والسيركات. كتبت من سطر إلى سطر، بعمى، دون أن أعرف ما سيأتي تالياً. أمتلك نفسي، السلم والحصان اللذين سرقتهما دون وعي.رافقني الشعراء والرسامون الذين أعبدهم – Rouault، ميرو، شاغال، ماكس جاكوب، سورا.و على نحو غريب،كان جميع هؤلاء الفنانين شعراء ورسامين ، وتجمعني معهم روابط عميقة.

إن المهرج شاعرٌ في حالة فعل. إنه القصة التي يمثلها. وهي قصة تتكرر دوماً – عبادة، إخلاص، وصلب.«صلبٌ ورديٌ»، bein entendu.

والجزء الوحيد من قصتي الذي واجهتُ فيه صعوبة كان الصفحات الأخيرة القليلة، التي أعدتُ كتابتها مرات عدة.«هناك ضوءٌ يقتل،» أعتقد أن بلزاك قال ذلك في مكان ما. أردتُ لبطلي، أوغوست، أن يغادر كضوء،لكن ليس في الموت! أردت أن يضيء موته الطريق. لم أره كنهاية وإنما كبداية. حين

يصبح أوغوست نفسه تبدأ الحياة – وليس له فحسب وإنما للبشرية كلها في الوقت نفسه.

لا أريد أن يفكر أحدٌ بأنني اخترعت القصة من فكري! لقد رويتها كما شعرتُ بها، كما كشفت لي نفسها قطعة قطعة. إنها لي وليست لي. وهي أغرب قصة كتبتها حتى الآن. إنها ليست وثيقة سريالية البتة. يمكن أن تكون عملية كتابتها سريالية، ولكنني أذكر هذا لأقول إن السرياليين أعادوا اكتشاف الطريقة الحقيقية في الإبداع. كلا. إن هذه القصة حقيقية أكثر من جميع القصص التي بنيتها على الحقيقة والتجربة. كان هدفي في الكتابة هو أن أقول الحقيقة، كما أعرفها. حتى الآن، جميع شخصياتي حقيقية، و مأخوذة من الحياة. أوغوست فريد لأنه جاء من الزرقة. ولكن ما هذه الزرقة التي تحيطنا وتغلفنا إن لم يكن الواقع نفسه؟ نحن لا نبتكر أي شيء في الحقيقة؛ وإنما نستعير ونعيد الخلق. ننزع الغطاء

ونكتشف. كلٌ شيء مُنِحَ، كما يقول المتصوفـون. علينـا فقـط أن نفتح أعيننا وقلوبنا، ونتوحد مع ذلك الذي هو كائن.

والمـهرج يروقـني عمقيـاً رغـم أنـني لم أعرفـه دومـــاً، لأن الضحك يفصله عن العالم. وضحكه ليس ضحكاً هوميريـاً . إنـه صامت، ما ندعوه بالضحك اللامرح. يعلّمنـا المـهرج أن نضحـك على أنفسنا. وضحكنا هذا يولد من الدموع.

والفرح هو كنهر: يتدفق بلا توقـف. ويبـدو لي أن هـذه هـي الرسالة التي يحاول المـهرج أن يوصلـها إلينـا، أننـا يجـب أن نشارك عبر تدفـق وحركـة لا يتوقفان، يجـب ألا نتوقـف كـي نتأمل، ونقارن، ونحلل، ونمتلك، بل يجب أن نتدفق في وعــبر – بلا نهاية، مثل الموسـيقى. وهـذه هبـة الاستسلام، والمـهرج يصنعها رمزياً. وعلينا نحن أن نصنعها واقعياً.

لم يكن العالم، في أي وقت من تاريخ الإنسان، مليئاً هكـذا بالألم والكرب. هنا وهنـاك، علـى أي حـال، نقـابل أفـراداً لم يلمسهم أو يقترب منـهم الحـزن العـام. وهـم ليسـوا أفـراداً بـلا

قلب، بعيدين عن الحزن.لكنهم لا يرون العالم كما نراه. إنهم يشاهدونه بأعين أخرى. نقول عنهم إنهم ماتوا بالنسبة للعالم. يعيشون في اللحظة، بامتلاء، والإشعاع الذي ينبعث منهم هو أغنية فرح أبدية.

والسيرك هو ساحة صغيرة من النسيان. مغلقة. يساعدنا، لفترة، على أن نفقد أنفسنا. ونتلاشى في الدهشة والبركة، أن ينقلنا اللغز؟؟؟. نخرج منه بدوار، حزانى ومرتوبين من وجه العالم اليومي. ولكن العالم اليومي، القديم، العالم الذي نتصور أننا نعرفه جيداً فحسب، هو العالم الوحيد. وهو عالم سحر. سحر لا ينتهي. مثل المهرج، نمر عبر الحركات، نحاكي إلى الأبد، وإلى الأبد نؤجل الحدث المهيب. ذلك أننا نموت ونحن نصارع كي نولد. لم نكن أبداً، ولن نكون. نحن دوماً في صيرورة، دوماً منفصلون ومبعدون. إلى الأبد في الخارج.

هذه هي صورة أوغوست أنغست، ألياس غي لي كريكوفر؟؟

– أو الوجه اليومي للعالم، بفمين. أوغوست هو من سلالة

أخرى. ربما لم أرسم صورته بوضوح كاف. لكنه يوجـد، حتى ولو من أجل السبب الذي تخيلته مـن أجلـه فقط. يجـيء مـن الزرقة ويعود إليها. لم يهلك، لم يضع. ولن يُنسـى كذلـك. ولم أسمع عن الرسوم التوضيحية التي تركها لنـا سورا إلا في أحـد الأيام حين كنتُ أتحدث مع رسام. قلـتُ إنـها متأصلـة هناك حيث منحها الكينونة – أبدياً. كم أنا ممـتنٌ أنـني عشـت مع أشكال سورا تلك، في Jatte Grande وفي Medrano وفي كـل مكان في الذهن! ليـس هنـاك شـيء البتـة وهمـيٌّ عـن إبداعاتـه هـذه، إن واقعيتـها تقـاوم الفنـاء. تعيـش في ضـوء الشـمس، في انسجام الشكل والإيقاع الذي هو مجرد لحن. وهكذا الأمـر مع مهرجي Rouault: ملائكة شاغال، سلم وقمر مـيرو، مجموعـة وحوشه كلها. وهكذا الأمر مع ماكس جاكوب، الذي لم يتوقف أبداً عن كونه مهرجاً، حتى بعد أن عثر على الله. ولقد أظهرت جميع تلك الأرواح المباركة التي رافقتني الواقع الأبدي لرؤيتها في الكلمة، والصورة، والفعل. إن عالمها اليومي سيصبح عالمنا في

أحد الأيام. إنه عالمنا الآن، في الحقيقـة، ونحـن بائسـون جـداً بحيث لا نستطيع أن نزعم أنه عالمنا.

هنري ميلر

عند قدم سلم يرتفع إلى القمر، كان أوغوست يجلس متأملاً، ابتسامته الثابتة، أفكاره بعيدة، هذا التظاهر بالنشوة، الذي أوصله إلى الكمال، وداخل شعاع ضوء خشبة المسرح يستلقي العالم الذي كان يولد فيه من جديد كل مساء. ويتألف من تلك الأشياء والمخلوقات والكائنات التي تتحرك في دائرة السحر، السلم الأبدي، القمر المثبت بمسامير إلى السقف، وبهذه الأشياء كان أوغوست ورفاقه ينجه

إنتاج دراما الب

32

ميل

ا

نينوى
للدراسات والنشر والتوزيع

